علم الاخلاق

لبنر

(٢) الغزو (السلب والنهب)

بين الإضرار بالمرء اما بجرحه او بقتله وبين الاضرار به بالاستيلاء على جسمه او عمله او ملكه — علاقة واضحة . وكلا الامرين يندرج تحت باب الاعتداء وقد كان يمكن ردهما اليه والكلام عليهما فيه ولكنني فضّلت الفصل بين الاعتداء الذي يرافقهُ سفك الدماء والاعتداء الذي لا يسفك فيه دمٌ وجعلت الثاني تحت هذا الباب

وغاية ما ينتهي اليه الاعتداء الذي نحن بصدده أسر الفرد واسترقاقهُ . وفي إدراج هذا ضمن باب الغزو تساهل لا يخفى على احد ولكن استعباد انسان واستخدام قواهُ لمقاصد ليست مقاصدهُ هو ابعد ما يبلغهُ الغزو فلا بدع ان يسمى كذلك . فانهُ يجرمهُ ثمرة عمله الذي يساق اليه اضطرارًا بدلاً من ان يجرمهُ ثمرة عمل سابق عملهُ اختيارًا . وسواء كانت تسميتهُ بالغزو صحيحة أو لا فهو ولا ريب من قبيل الاعتداء وان لم يكن مثل القتل في فظاعته فهو ثانيه لا محالة

ولا حاجة بنا في هذا المقام الى ايراد الشواهد والادلة على ان هذا النوع من الاعتداء كان مصاحبًا للحرب منذ اول عهد الانسان بها . وكان الغالبون يأكلون اسراهم او يستعبدونهم . ونشأ عن اخذ الاسرى اتفاقًا اخذهم قصدًا ثم صار الناس يغزو بعضهم بعضًا قصد الحصول على النَّال فصار الاسر — وهو ابعد غايات الغزو كما تقدم — مصاحبًا للحرب سواء كان ذلك قصدًا او اتفاقًا وما كان انتشارهُ ممكنًا لولا الحرب

وعلاقتهُ اتصال شديد بالغزو خطف النساء وربما كان خطفهنَّ اقدم من الغزو لاننا نجدهُ بين القبائل المسجية التي لم تعرف الرق . فكان الغالبون يستحوذون على غير المقاتلة من المغلوبين ويتملكونهم والنساء في جملتهم . وجرى ذلك زمانًا طويلاً حتى صار عادة بينهم ووجدوا ان الحصول على النساء بالحرب او الخطف خير الوسائط اذ يكفون به مؤونة الانفاق على تربيتهنَّ وتشتيرهنَّ

فالحقيقة التي يرام تقريرها هنا هي ان العاطفة الادبية في الطبقات الدنيا من المجتمع الانساني لا ترى عارًا في انواع الغزو المتقدم ذكرها بل بالضد من ذلك تستصوبها . وفي

صور المصريين القدماء والاشوريين ونقوشهم التي تمثل تنكيلهم بالاسرى دليل على صحة ذلك وعلى رضائهم عن استعباد الاسرى . ولسنا نرى في كتب اليونانيين ولا العبرانيين ما يدلُّ على انهم كانوا يستنجون الاسترقاق من الوجهة الادبية . وهكذا يقال في سبي النساء ثم اتخاذهن زوجات او سراري . وكان الآريون القدماء يستحلون خطف النساء كما يستدلُّ من كتاب "مهبراتا" ثم حللته كتبهم الدينية واوصت به

اما الهيئة الاجتماعية الحديثة فامتاز ارتقاؤها بنبذ اقطع اشكال الغزو هذه تبعاً لنماء عاطفة التواد الداخلي وانقراض عاطفة العداء الخارجي . وذلك لان العاطفة الادبية ارتقت حتى بلغت الحدَّ اللازم لنبذ تلك الاشكال

هذا ولما كان الانتصار في الحرب امراً ممدوحاً فقد عدَّ كذلك كلُّ ما تعلق به من مثل استرقاق الاسرى واتخاذ نسائهم زوجات او حظايا كما تقدم ومثل الاستحواذ على ممتلكاتهم . وانبنى على ذلك ان غزو الاعداء — والغرباء في الجملة لانهم كانوا يوضعون في مصاف الاعداء — صار يفرق بينهُ وبين غزو الاقرباء فكان الاول يستحسن في حين كان الثاني يستهجن . مثال ذلك ان بعض القبائل الهمجية لم تكن تعدُّ الشابَّ مستحقاً لان ينظم في مصفِّ الابطال المحاربين ما لم يعُدَّ ظافراً من احدى غزواته . وكانت تعدُّ اعاظم اللصوص اولى الناس بالاكرام . ويعتقد اهل بتغونيا (في اميركا الجنوبية) ان الذي لا يحسن السرقة من الغرباء لا يستطيع ان يعول امرأة . قال لفستون عن سكان شرقي افريقية ما يأتي "ان القبائل التي اعتادت سرقة المواشي لم تكن تعدُّ سرقتها امراً محرَّماً كما تعدُّ السرقة عادةً . فقد قلت مرة لاحد زعمائهم قبلما أحسنت لفتهم "انت سرقت مواشي فلان" فأجاب "كلاَّ لم اسرقها وانما انتشلتها" . وقال بلاس في كلامهِ على احدى قبائل سيبيريا انها سرَّاقة نهَّابة ولكن من الغريب لا من القريب . وقال آخر عن قبيلة الكرجس من قبائل سيبيريا ايضاً "اذا سرق احد من قريبهِ فرساً او جملاً عوتب على ذلك ولكن اذا نهب بلدة غريبة عدَّ عملهُ هذا حقيقاً بالاكرام والتعظيم"

وعلى ذلك تجري سائر القبائل الغازية والبدو في جملتها فانها تكرم الضيف ما دام نازلاً عندها فاذا رحل عنها اقتفت اثرهُ لتسلبهُ ما معهُ . قال احد السياح الاوربيين "نزلنا على زعيم من زعماء الكرجس فاخبرنا عن زعيم آخر كنا ننوي استضافتهُ انهُ لا يسيء الينا ونحن عندهُ فاذا ارتحلنا انفذ في اثرنا نفراً من رجالهِ ليسلبونا ما معنا"

ولعلَّ قبائل التركمان اعظم القبائل افتخاراً بالسرقة . فاهل مرو (من بلاد الشرق) لم

يكونوا يعدّون الغزو حتى بين القبيلة الواحدة امرًا ادًا الاّ في الزمان الاخير . قال بعضهم " ومن الغريب ان قبيلة الكُدّ تعيش بالقتل والنهب ولكنها تحتقر السارق الذي يسرق شيئًا من آخر او من دكان في السوق " وقال غيره " عقد المرو مجلسًا من زعمائهم وكنت نازلاً بينهم فأشرت عليهم بالكف عن الغزو وشن الغارات فأجابني احدهم وهو بين مغيظ ومدهوش قل لنا بحق الله كيف نعيش اذا انقطعنا عن الغزو " . والنساء في بعض القبائل يدعون في صلواتهن ان ينشأ ابناؤهن لصوصًا لا يشقّ لهم غبار ولا يصطلى بنار . واغرب من ذلك ان من اشتهر بالسلب والنهب بين قبائل التركمان حتى فاق الاقران جُعل من الاولياء بعد موته وحجّ الناس مقامهُ يتبركون ويسجدون ويتطهرون بترابه ويتهجّدون . وقال دلتون عن قبيلة الكوكيس انها تكرم الماهر في السرقة فوق كل اكرام . وقال جلور " ان اهل منغوليا يجلّون قدر اللصوص المعروفين وما داموا ناجحين في حرفتهم فلا عار عليهم " وقيل عن قبيلة اخرى من القبائل الاسيوية ان رجالها لصوص ماهرون يباهون بجرائمهم . ولا تعدّ السرقة بينهم عارًا يستحق صاحبها العقاب الاّ اذا قُبض عليه متلبسًا بالجناية كما كانت الحال عليه عند اهل سبارطة القدماء وكما هي الآن عند بعض قبائل اميركا . والذنوب عند بعض قبائل افريقية نسبية لا تعدّ ذنوبًا الاّ اذا افتضح امرها فكلّ ما يعمل في السرّ حلال وكلّ ما ينكشف حرام . فترى في الامثال والشواهد المتقدمة ان المهارة او الشجاعة تبرّر الاعتداء على حقوق الغير

ويستفاد من درس احوال الامم المتوغلة في القدم انهُ كلما قلّت اسباب العداء الخارجي واشتدت اواصر التواد الداخلي تغيرت التصورات والعواطف الادبية . ورد في كتاب المنرد الديني المسمى ريج ڤيدا كثير من اخبار ارتكاب الآلهة للسرقة والنهب فالاله ڤشنو سرق ما طبخ من الطعام في وليمة صنعها الاله اندرا لشرب الراح . وهذا المنرد حذو آلهتهم عملاً بما أوصوا به في كتبهم من مثل قولها " اذا اشتهى احد قنية غيره لزمهُ كهنديّ ان يستولي عليها بالقوة لا بالتسوّل " ثم تغيرت هذه المتصورات والافكار فيما بعد حتى اننا نرى في كتب المنرد التالية ما يناقضها وينافيها

وكان هذا شأن سكان شمالي اوربا القدماء فانهم كانوا يرفعون قدر النهب والقرصنة فيكرمون اللصوص والقرصان. قال يوليوس قيصر يصف الجرمانيين الاوّلين " لم يكن في اعتداء القبيلة على املاك القبيلة الاخرى اقلّ عار او شنار عندهم . فاذا راموا الحرب عقدوا مجلسًا ووقف زعيم من زعمائهم فقال " من لحرب فالي " فيلتفّ حولهُ مريدوهُ فيهتف الناس

لم مناف الاستحسان . واما الذين يحجمون ولا يلبّون النداء فكانوا يعدّون خونة مارقين ويفتدون ثقة قومهم بهم فيما بعدُ " . وقال سان بالله يصف اهالي فرنسا في اوائل عصر الاقطاعات "كان ابطالنا القدماء يوسمون بالبخل والطمع والغش والحنث والسلب والنهب والسرقة وسائر الموبقات التي لا شكيمة لها تكبح جماحها وكانوا خلوًا من كل مبدإٍ وعاطفة ادبيّة" وفي حرب المئة سنة سادت دولة اللصوصية وبات السلب والنهب غاية الثارات والغزوات التي كان اشراف ذلك العهد يشنّونها . وابتنت سرايا اللصوص وعصاباتهم المعاقل والحصون في كل ناحية وعاثوا في الارض مفسدين يعيشون بالترف والتنعم على الاسلاب والغنائم ويسبون الاولاد فيجعلون منهم خدمًا واعوانًا والنساء فيتخذونهنّ وصائف وسراريّ ويؤمّنون المسافرين على ارواحهم ومتاعهم لقاء مبالغ فاحشة يُتقدونها . ومع السلب والنهب على البرّ جرى السلب والنهب على البحر او القرصنة . وفي حرب الثلاثين سنة في المانيا (وهي التي انتهت بمعاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨) كانت حكومة اللصوصية هي الحكومة المرضية المطاعة فكان الجنود لصوصًا . ولم يكونوا يقتصرون على السلب والنهب أيان ساروا واين حلوا بل كانوا يذيقون الناس الوان العذاب ليحملوهم على الاقرار بالامكنة التي دفنوا فيها اموالهم حرصًا عليها ان تمتدّ ايدي السالبين اليها . وكان الفلاّحون يحرثون الارض وهم مدججون بالسلاح . وزد على ذلك ان ضباط الجنود كانوا يغشون جنودهم ويحتالون على سرقتهم حتى كانوا يجمعون الثروة الطائلة منهم

ومع ما هناك من اختلاط الادلة وعدم جلائها فما من احد الاّ ويرى من خلالها هذه الحقيقة وهي انهُ كلما كانت الجماعات تنتظم وترتقي الى حال تقلّ الحرب عندها ويقلّ اشتراك الافراد فيها كان الغدر يحطّ والوفاء يرتفع وظلّ الاول في انحطاط والثاني في ارتفاع حتى بات سلب الغريب الآن جرمًا مساويًا لسلب القريب . نعم انهُ لا يزال هناك سرقة وغش كثير ولكن السرقات اقلّ عددًا مما كانت قبلاً ووسائل الغش دون ما كانت عليهِ فظاعة . وقد ارتقى الناس كثيرًا عن الحال التي كان الملوك فيها يغشون مدايينهم واصحاب الحوانيت يباهون بتدربهم على تصريف النقود الزائفة بل ان الفرق واضح في مقدار الاعتداء على الاملاك بين الحروب التي انتهت سنة ١٨١٥ (حروب نبوليون التي انتهت بمعركة ووترلو) والحروب التي بعدها . واوضح منهُ الفرق بين القبائل الهمجية المحاربة المذكورة آنفًا والقبائل المسمجية المسالمة . قال بعضهم يصف قبيلة مسالمة "ان الواحد منها غاية في الامانة والوفاء بل انهُ لا يستطيع ان يتصوّر كيف ان الانسان يستولي على ما ليس لهُ" والاسكيمو قوم لا

يعرفون الحرب وقد قال فيهم بعض واصفيهم " انهم على اقصى درجات الامانة والوفاء " واما الاسكيمو الذين وصفوا بغير ذلك فهم من الذين انحطوا من اختلاطهم بالتجار البيض. وقال بعضهم في وصف قبيلة نازلة على ساحل غينيا الجديدة الجنوبي ان رجالها اكثر صدقاً وامانة في معاملاتهم التجارية من الاوربيين اتفسهم وان فيهم ميلاً طبيعياً الى الصدق والعدل وفيهم مبادئ ادبية راسخة فيحسبون السرقة جرماً عظيماً جداً وهي نادرة بينهم. وقال آخر في كلامه على احدى القبائل الهندية " ان الهندي صادق امين وندر ان يسرق ولو عرض له اعظم التجارب " وقال مورجان عن قبيلة الاروكوى " ان السرقة وهي ادنى الجرائم الانسانية قلما يعرف لها اثر عندهم "

عظمة اميركا

ان ما يأتي مقتطف من خطبة خطبها حضرة الاستاذ الفاضل بولس افندي الحولي من اساتذة الكلية الاميركية في بيروت على جمعية شمس البر في احتفالها السنوي الاخير في ابريل الماضي. وكان قد سافر الى اميركا في صيف سنة ١٩٠٤ وشاهد كثيراً من دلائل عظمتها وارتقائها الغريب. قال بعد المقدمة في كلامه عن رومية واذا زرت رومية العظيمة وشاهدت خرائبها وآثارها القديمة ودلائل مجدها السالف فلا تقل كما قال الشاعر

" في الدنيا تقول بملء فيها حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
فلا يغرركمُ مني ابتسامٌ فقولي مضحك والفعل مبكي "

ولا تقف عند قولهم " ان الله يديل الايام بين الانام " بل قل هو الافراط في الشهوات والانغماس في الملذات واهمال التربية في العيال وسوء تصرف المال والضغط على الطبقة المسكينة. هذا ما يدك العمران ويخرب البلدان ويترك الآثار والخرائب شواهد تواطق صوامت

واذا قدر لك ان تؤلف تاريخ قوم فلا تجعل همك سرد الحوادث في اوقاتها فقط بل افسح بين صفحات تاريخك مكاناً لذكر السبب والمسبب وأركيف يكون العدل اساس الملك والعلم دعامة العمران وكيف تقوم امة وتسقط أخرى طبقاً لنواميس الطبيعة العاملة في الجماد والحي

واذا بلغت نيويورك لاول مرة فلا اواخذك اذا وقفت حيران تنظر الى ما حولك من مظاهر المدنية الاميركية فلا يأخذ عينك الا الحركة الدائمة — حركة الناس والقطرات